تعرفي على الجلالة العلمية لشارح صحيح البخاري رحمه الله تعالىٰ[١]

حامدًا ومصليًا ومسلمًا

لقد عرفتُ الشيخ شارح صحيح البخاري المفتي محمد شريف الحق الأمجدي منذ كنتُ في السادسة أو السابعة من عمري، كان من عادة أبي أنه يذهب غد العيد إلى بلدة "غوسي" ويلتقي بأقاربه، وكذلك بأعاظم العلماء هناك، ويحضر عند صدر الشريعة الشيخ أمجد علي رحمه الله تعالىٰ مواظبًا مادام الشيخ كان حيًّا. وعند ما صرتُ واعيًا بدأتُ أذهب معه إلى بلدة "غوسي"، وما كان الشيخ صدر الشريعة حيًّا في ذاك الوقت، لكن العلامة عبد المصطفى الأعظمي، والشيخ شريف الحق الأمجدي كانا طليعتين من العلماء الذين يلتقي بهم أبي، وبهذا رسخ في قلبي أنهما من كبار العلماء ههنا.

ولم تكن لي في ذاك الوقت القدرة على التحدث العلمي والفهم حتى يتمكن لي من تكوين رأي بنفسي من مجالس هؤلاء السادة، فبقيت تلك المعرفة المقدمة لفترة طويلة، وانتهزتُ الفرصة لقراءة الشيخ المفتي شريف الحق الأمجدي وفهمه بنفسي عندما دخلتُ في صف الهداية ومشكوة المصابيح وغيرهما في دار العلوم الأشرفية بـ"مبارك فور" بعد المدرسة ضياء العلوم بقرية "خيرآباد"، ووجدتُ من طريق شخص عددًا خاصًّا بالإمام حسين مسمىٰ بـ"كربال كا مسافر" (الراحل إلى كربلاء) لمجلة "باسبان" المصدّرة من "إله آباد"، كنتُ معتادًا للقراءة منذ المدرسة الإبتدائية، فلما وجدتُ هذا العدد من المجلة المذكورة طالعتُه، كان هذا العدد قد نشر ردًّا على كتاب لمحمود العباسي الأمروهوي المسمى بـ"خلافت معاوية ويزيد"، رتّب

---

(١) كتب أستاذي الشيخ **محمد أحمد المصباحي** دام فيضه هذه المقالة باللغة الأردية، ونشرتْ تلك المقالة في "معارف شارح البخاري" تحت عناية "مطبع مومبائي" في يناير سنة ٢٠٠٠م، والآن نقلتُها إلى العربية، ١٢. محمد مقبول المصباحي.

العلامة مشتاق أحمد النظامي بعض الأسئلة ناظرًا إلى محتويات الكتاب، وأرسلها إلى أصحاب الفكر والقلم في الهند، وطلب عنهم أجوبتها ونشرها، أسئلته مايلي:

(١) خلافة علي كرم الله وجهه الكريم صحيحة أم لا؟

(٢) لماذا لم يقتصّ عليّ قصاص عثمان رضي الله تعالىٰ عنهما؟

(٣) يزيد كان فاسقًا أو فاجرًا، أو زاهدًا ومتدينًا؟

(٤) خلافته صحيحة أم لا؟

(٥) كان الإمام حسين رضي الله تعالىٰ عنه على الحق أو على الخطأ؟

(٦) وهو شهيد في سبيل الله أم لا؟

كتب أجوبتها كثير من العلماء من بلاد الهند، بعضها كانت مجملة للغاية وبعضها كانت مفصلة شيئًا، ومعظم المقالات كانت مبنية على إجاباتها الواضحة من كتب أهل السنة، ولكن في بعض المقالات تمّ تقييم أفكار محمود العباسي بشكل نقدي أيضًا، من بينها مقالتان أو ثلاث مقالات أثارتْ إعجابي أكثر، وأهم من هاتين المقالتين أو الثلاث هي مقالة حضرة الشيخ المفتي شريف الحق الأمجدي (رحمه الله تعالىٰ).

إني شعرتُ بأنه طالع كتاب العباسي كاملًا، وحدّد مواضع الأخطاء قبل رقم الجواب، ثم ردّ عليها ردًّا انجلتْ به سحب الشكوك والشبهات كلها، وطلعتْ شمس الحق مضيئة للعالم، ولا يكون عبثًا إن عقّبتُ تعقيبًا كاملًا على هذه المقالة ليستكمل كلامي حول تدرّج التعرف والتأثر.

إنه كتب أولًا مخلص التمسكات لمحمود العباسي فيما يلي، ثم عطَف أشهب القلم إلى الرد عليه.

حاصل ما كتب العباسي:

"فوجدتْ هذه البيعة بتأييد الثُوّار والقاتلين بل بتأكيدهم، وكانت أقيمتْ هذه الخلافة بتأثير الحزب السبائي بعد قتل الخليفة العشيق والراشد ظلمًا وبغير حق، وهو

عثمان ذو النورين، ولم يقتصّ من القاتلين القصاص الواجب شرعًا، وما كان له إمكان، ورفض معظم الصحابة المبايعة، لذا لم تُمكن تمامية بيعة الخلافة".

حلّ حضرة المفتي الدعوى المذكورة إلى أجزاء، وبين أنه ذُكرتْ ثلاثة أشياء لتقرير عدم تمام خلافة علي المرتضىٰ رضي الله تعالىٰ عنه، وهي مايلي:

(١) أقيمت تلك الخلافة تحت تأثيرالسبائيين.

(٢) عدم الاقتصاص من قاتلي عثمان.

(٣) رفض الأكابر من الصحابة البيعة.

ثم ردّ على الأول والثالث وأثبت بـ"الصواعق المحرقة" للعلامة ابن حجر المكي وبـ"تاريخ الخلفاء" للإمام جلال الدين السيوطي مع عزْوه لطبقات ابن سعد وبـ"عبارات الرياض النضرة في مناقب العشرة" لمحب الدين الطبري أن خلافة علي المرتضى لم تقم تحت تأثير السبائيين بل إنها أقيمتْ باتفاق أصحاب الحل والعقد وأكابر الصحابة كطلحة وزبير رضي الله تعالىٰ عنهما من العشرة المبشرة وأصحاب البدر رضي الله تعالىٰ عنهم.

والأمر الثاني حماسي جدًا، ذكرتْه الطبقة الناصبية في كتبها مع ألوان كثيرة، وقد تمّ تكرير هذا الاعتراض عدة مرات من نظري، وهو أمر مريب للغاية، قال حضرة المفتي ردًّا عليه قولًا واضحًا وصارما يكفي لإزالة كل شك شبهة مع أصولها، وبعد ما قرأتُه أول مرة غرقتُ في محيط السرور والسعادة، ولم أستطع إلا أن أقدّر الرؤية النقدية ومهارة القضاء والإفتاء لحضرة المفتي المحترم، إنه يقول:

"من لوازم القصاص في ضوء الشرع (١) أن يقيم ورثة المقتول الدعوى أمام الخليفة أو القاضي، (٢) وأن يعينوا القاتل، (٣) وأن يقدموا الشهادة الشرعية على كونه قاتلًا أو يقرّ به القاتل بنفسه، بعد ذاك يجب على الحاكم الاقتصاص.

وورثة عثمان رضي الله تعالىٰ عنه لم يقدموا الدعوى، ولم يعينوا القاتل فلم تمس الحاجة إلى البينة والشهادة الشرعية، وبدون ذاك كله لو اقتص عليّ فلمن وبما وكيف؟

وكيف يستطيع الحاكم أن يتعدى على أحد دون الطلب وتعيين الورثة؟ وإذا تم تقديم أي مطالبة من هذا القبيل في محكمة الخلافة فيجب على الأمروهوي تقديم الدليل. والحد أن طلحة وزبير حتى الأمير معاوية رضي الله تعالىٰ عنهم أنفسهم أغاروا عليه لكنهم لم يقدموا أي مطالبة من هذا القبيل في محكمة الخلافة"،(ملخصًا). ثم يقول:

"إن الأمروهوي ينظر إلى القانون الإنجليزي الذي بموجبه تقوم الشرطة بعد جريمة قتل باعتقال أشخاص ما والقبض عليهم، ويضربونهم، ويحاكمون على أحد منهم في المحكمة، فإن أصاب الرمي إلى هدفه، وسلم الشاهدون المفترضون من الجرح والقدح أمام القاضي، يحكم بالشنق، وإلا فإنه غالبًا ما يحدث أن القاتل الحقيقي يتقلب في الملذات، ويتم إعدام شخص بريء على المنشقة. والشريعة الإسلامية ليست بهذه القسوة، ولا يتوقع من علي رضي الله تعالىٰ عنه أن يترك الشريعة الإسلامية، ويتبع قانونًا آخر، ولا يتوقع منه أن ترفع دعوى، ويتم إثبات الدليل ومع ذلك لا يقتص، القصاص حد، وعدم تنفيذ الحد بعد البينة ظلم عظيم وفسق كبير، ويمكن أن يكون من عمل الباسلين مثل ابن تيمية وأتباعه العميان أن يرتكبوا نسبة ارتكاب ذاك الظلم والفسق إلى مولى المؤمنين وصهر سيد المرسلين، لكن لا يمكن أن يفعله أي سني صحيح الاعتقاد"،(ملخصًا).

ثم أثبت أن خلافة علي رضي الله تعالىٰ عنه كانت حقًا، وهو كان على الصواب في المعارضة بينه وبين طلحة وزبير رضي الله تعالىٰ عنهما، ثم قدّم تصريحاته بأحاديث كثيرة، وأكمل هذا البحث على عبارة صارمة للإمام النووي شارح صحيح مسلم، ومع ذلك يتم جواب سوالين لمجلة "باسبان".

وبعد ذاك يطرح سوال الفسق والتدين ليزيد، فقال حضرة المفتي المحترم متعقبًا على محمود العباسي:

"(١) إن الأمروهوي أقام دعائم جميع تحقيقاته على أن جميع المتؤخرين باستثناء ابن تيمية وابن خلدون كانوا متبعين للروايات، وإنهم نقلوا كل ما وجدوا بشكل أعمى بدون بحث وفحص.

(٢) ووصف الأمروهوي الإمام ذا فخامة ومسلم الثبوت الإمام ابن جرير الطبري بأنه شيعي، ووصفه بأنه غير موثوق به، بينما كتب العلامة الذهبي في رده على التهمة الموجهة إلى ابن جرير أن هذه شبهة باطلة، وابن جرير أحد من أئمة الإسلام الموثوق بهم، أما ابن خلدون فهو كان أخا الخوارج من المعتزلة، صُرح على اعتزال عبد الرحمن الحضرمي الشهير بـ ابن خلدون في "مجموعة الفتاوى" للشيخ عبد الحي الفرنجي محلي، ج: ١، ص: ٧٧٢".

إظهار أن إمام الوقت الإمام الطبري شيعيّ وغير موثوق به، وأن معتزليا محقق وثقة وموثوق به حجة واضحة على أن من يوافق طبع الأمروهوي فهو لديه محقق ومدقق وصاحب عقيدة صحيحة ومعتمد وجامع كل كمال، ومن يخالف طبعه فهو لا شيء، هذا هو التحقيق والتفتيش الذي يعلن به على النطاق الواسع.

وبهذا التحليل ينكشف واضحًا سرّ أمانة محمود العباسي وديانته، ويتضح أن الفكر الزائف الذي يعتقده هؤلاء الضالون يستمرون في ارتكاب خيانات مذهلة متنوعة لإثباته صحيحًا، وأثناء التعليق على الأسلوب المذكور ألقى حضرة المفتي المحترم ظريفة مضحكة وحادة للغاية في مكان واحد إنه يكتب:

"إن الأمروهوي مغرم بيزيد شديدًا، لا يرى شيئا حتى الأحاديث الصحيحة وأقوال كبار الصحابة والتابعين، إنه يكتب: "لم يذكر بالسوء يزيد من معاصريه إلا عبد الله بن زبير، ولكنه لم ينظره بأعينه فكلامه ليس بثقة"، ولكن على عكسه يصف الأمروهوي فضل يزيد و كماله كأنه يشارب ويواكل يزيد وصديقه للغاية.

إذا كان قول صحابي عظيم مثل عبد الله بن زبير غير موثوق به بعدم المشاهدة مع كونه معاصرًا فلماذا لا يكون قول مولود بعد ألف وثلاث مأة سنة غير موثوق به بذاك السبب؟ وإن يقبل قول فنانٍ عادٍ بسبب التحقيق والتفتيش الهوائي مع الوسائط الممتدة على ألف وثلاث مأة سنة فلمَ لا يقبل القول المبني على الإذعان والوثوق والتحقيق والتفتيش الموثوق بهما بدون البعد الزماني لصحابي عظيم معاصر، وهذا هو الأخذ الذي لا يستطيع الهروب منه من يسمّون بالباحثين اليوم.

وأوضح حضرة المفتي المحترم مكانة يزيد بعد هتك سِتر معيار التحقيق والتفتيش لمحمود العباسي، أولًا أنه نقل الأحاديث المشتملة على ذمّ يزيد مع أقوال الشارحين، يُعلم به أن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم قد أخبر مسبقًا بأن أمتي تتخرّب بأيدي هؤلاء الفتيان يزيد ومروان، وذُكر في أحاديث مع التنصيص على اسم يزيد أن رجلًا أمويا أول من يقيم العراقيل في أمر الأمة، وأول من يغير السنة. وجرأة غير جائزة قول الأمروهوي "متبع السنة لمن قال صلى الله تعالىٰ عليه وسلم له "مبدل السنة" ثم كتب المفتي المحترم أن رجلًا ذكر يزيدًا بلقب "أمير المؤمنين" أمام الخليفة الراشد الأموي نفسه عمر بن عبد العزيز فأمر له بأن يضرب عشرين سوطًا، ويقول معاصر يزيد عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة رضي الله تعالىٰ عنه: "نحن اصطففنا خلاف يزيد حين خشينا أن ينزل علينا حجارة من السماء (بكسلان وإهمال) كان يزيد يتزوج أمهات الأولاد والبنات والأخوات، ويشرب الخمر ويترك الصلاة".

ثم ذكر فسق يزيد وفجوره ومظالم واقعة حرة، وخطبة ابنه معاوية المشتملة على ذمه الصريح بعد وفاته، وأقوال حسن البصري والإمام أحمد بن حنبل، والعلامة ابن الجوزي، وسعد الدين التفتازاني" ثم يقول:

"إن سكت العلماء المحتاطون عن تكفير يزيد لأنهم لم يجدوا دليلًا قدر ما يحتاج إليه للتكفير، لكن المنكود الذي أفتى عليه بالكفر العظماء من الأئمة والعلماء لا يقوله الزاهدَ العظيم إلا من يكون غافلا وذاهلا عن الأمور الدينية.

ثم ذكر خيانات الاستدلال على مغفرة يزيد بقوله عليه السلام "أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر مغفور لهم"، وكتب أجوبة شراح الحديث، ثم تعقب ذاك الاستدلال في مقالة مستقلة، ويستحق هذا البحث أن يطالع ويُشجع لكونه علميا وتاريخيا، ثم يكتب في الختام:

والحاصل أن الأمة أجمعتْ أن يزيد كان فاسقا وفاجرا، والإمام أحمد بن حنبل، وابن الجوزي يحكمان عليه بالكفر، ويجيزان عليه اللعنة بتحديد اسمه. ومن الكذب

البحتِ أنه كان زاهدًا وعابدًا، ولو بُحث في التاريخ كله لن توجد حادثة واحدة من زهده وقناعته، ولو كانت موجودة فلماذا لم ينقلها الأمروهوي؟".

وبعد ذاك أثبت المفتي المحترم برواية ذكرها محمود العباسي نفسه أنه (يزيد) لم يكن زاهدًا، وههنا يتم جواب السوال الثالث لمجلة "باسبان"، ثم التفت إلى السوال الرابع وأثبت أنه ما كان متأهلًا للخلافة بفسقه العلني وفجوره، وما كانت خلافته صائبة، لذا أنكر عليها الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، وإبدال المنكَر يكون بالقول والفعل كليهما، والأفضل إبداله بالفعل، إن الصحابة أنكروا قولًا، وخالفه الإمام حسين فعلًا، وكان يليق بسبط النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم أن يسلك الطريق الأمثل.

ثم أثبت أن الإمام حسين كان على الحق في مخالفة يزيد، وأنه استشهد ظلمًا، ونقل حول المذكور أحاديث وعبارات تمهيد أبي شكور السالمي، ثم كتب القرار، ولم يكتف بذاك بل تعقب على الحجج التي نقلت لإثبات أن الإمام حسين كان خاطيًا، هذا البحث أيضًا بسيط جدًا لذا ينبغي أن يطالع في موضعه، ثم أظهر في الختام أن الأمروهوي سمى قياساته الفاسدة بالدراية، وبها أنكر كثيرًا من الجزئيات المسلّمة لمشهد كربلاء، وفي هذا الصدد تعقب بوصف المثال على دراية الأمروهوي أو قياسه الفاسد الذي ذكره لجزئية والرد عليها. انظروا، يقول:

"إن الإمام حسين ارتحل من مكة المعظمة في العاشر من ذي الحجة لا في ثامنه، وفي الطريق ثلاثون منزلًا لذا أنه وصل إلى كربلاء في العاشر من محرم واستشهد ذاك اليوم، ولم يقم ثلاثة أيام في كربلاء، ولم يُمنع الماء ثلاثة أيام".

لا أصل لتلك الدعوى في حديث ولا في كتاب تاريخي، بل يعمل فيها قياس مغالط وحماسي للغاية لعامة الناس خاصة، وذاك أنه "هل كان من الممكن أن يترك الإمام الحج، ويخرج إلى الكوفة، يا له من تعجل" أي يؤدى الحج في التاريخ العاشر، فكان عليه أن يؤدي الحج ثم يسافر إلى ما يشاء، ولا يمكن أداء الحج في السابع من ذي

الحجة لذا لا يمكن الارتحال أيضًا في الثامن، والروايات المتعلقة به مختلقة لا أساس لها. ويكب المفتي المحترم فاضحًا هذا الافتراض:

"أيها الأمروهوي كم من ذكاء استخدمتَ ههنا، إن الإمام حسين كان قد أدّى الحج مرارًا، ما كان عليه الحج المفروض، ولو أدّى هذا الحج كان تطوّعًا، وعلى جانب أخر كان الكوفيون أكّدوا له بكل معونة ممكنة لإزالة الاستبداد اليزيدي، فكانت إزالة المنكر عليه فرضًا، والناس يعلمون حتى دارس "منية المصلي" أن أداء الفرض مقدم على النفل، لو ترك الإمام حسين نفلًا لأداء ذاك الفرض الهام فأيّ ذمّ ارتكب؟"

وأظهر في القابل أنه بضوء بيان الأمروهوي نفسه يقتضي القياس الصحيح على خلاف ذاك القياس الفاسد وهو أن يمنع الماء لأن الأمروهوي أيضًا يقول: "كان ابن سعد لا يريد القتال، ولكن كان هدفه بيعة يزيد" ففي الصورة المذكورة يقتضي القياس أن يمنع الماء لينظر الإمام الصبيان الباكين والمتململين عطشًا، ويترك العزيمة، ويعمل بالرخصة.

وما يلي من التعاقب هو أكثر إثارة للنشاط والفرح، ملخصه أن اقتضاء ذاك القياس الفاسد ألا يصل الإمام إلى كربلاء حتى العاشر من محرم أيضًا، لذا ينبغي للأمروهوي أن يقول إن واقعة كربلاء كلها والشهادة في العاشرة أسطورة فقط، لم يصل الإمام إلى كربلاء في ذاك التاريخ، ولم يُقتل، ولم يحدث جميع الوقائع التي امتلأت بها كتب السير والتاريخ، إن كانت الدراية فلتكن مثل هذه، ولو أنكر منع الماء فقط فأي سهم كبير رمى، لقد كان له فضل كامل لو أثبت أن حادثة كربلاء برمتها مجرد أسطورة لا قيمة لها فوق بستان الأوهام بنفس تلك الدراية التي أنكر بها منع الماء، يكتب شارح البخاري المفتي المحترم:

"ومثل ذاك أثبت الأمروهوي بعد بحث طويل، أن ما بين مكة والكوفة ثلاثون مرحلة، ولا يمكن قطع مرحلتين أو ثلاث مراحل في يوم، لذا قطعَ الإمام ثلاثين منزلًا في ثلاثين يومًا بحساب قطعِ منزل في كل يوم، ووصل إلى كربلاء في العاشر من محرم".

والصحيح أن العقل إذا وقع عليه غطاء الحب أو البغض فلا دواء له، والمنزل الأول "بستان بني عامر" على مسافة أربعة وعشرين ميلًا، ولا يمكن لأحد أن يقطع أربعة وعشرين ميلًا بعد أداء مناسك الحج في العاشر من ذي الحجة، وما يُدري الأمروهوي ما هي مناسك العاشر من ذي الحجة؟ هناك خروج من المزدلفة قبل طلوع التاسع من ذي الحجة إلى منى، والرمي على جمرة العقبة، وتقديم التضحية، وحلق الرأس، ثم الذهاب إلى مكة المعظمة وأداء طواف الزيارة، والسعي بين الصفا والمروة، هل يخطر ببال عاقل أن الركب الحسيني خرج من المزدلفة ماشيا، ووصل إلى منى، وأدّى مناسكها، ثم ذهب إلى مكة المعظمة، وأدى مناسكها، وبعد ذاك وجد وقتا قطع فيه أربعة وعشرين ميلا، ووصل إلى "بستان بني عامر"، لا جرم كل ذاك متعذر، فيلزم بما فتّش عنه الأمروهوي أن الإمام ارتحل من مكة في الحادي عشر، ووصل إلى كربلاء في الحادي عشر من محرم، فكيف قتل في العاشر من محرم؟

وثانيا أن رمي الجمار في الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة من واجبات الحج، ولو كان الحج نفلا الرمي في الحادي عشر والثاني عشر واجب، لو لم يحج الإمام لم يلزم عليه إلا ترك النفل فقط، ويلزم ترك الواجب بترك رمي الحادي عشر والثاني عشر بعد بدء الحج، وأي فطانة في الوقوع في آفة ترك الواجب للبراءة من ترك النفل، فيلزم بتفتيشك الجغرافيائي أن يرتحل الإمام من مكة في الثالث عشر من ذي الحجة، وأن يصل إلى كربلاء في الثالث عشر من محرم، فأين وقائع العاشر من المحرم وماقبله، قل ما هي إلا أساطير المؤخرين.

وبعد ما قرأتُ هذه المؤاخذة الشديدة غمرتني المسرة والفرح، وشكرتُ الله تعالىٰ على أنه إذا كان هناك أناس كاذبون، يفترسون الفكر الإنساني وعقول الناس بنشر خدعة تلو الأخرى، فإن هناك أيضًا علماء ناقدين يكسرون طلسم مخططاتهم، كان هذا أوّل تعرّفي على جلالة علم حضرة المفتي المحترم.

هذه المقالة رائعة ومثيرة للإعجاب من نواح عديدة، ويتجلى فيها كل من خُبرة واسعة للأحاديث والروايات والعلم بالتاريخ والمعرفة بالرجال والمهارة في الفقه

والإفتاء، وكمال النقد والمناظرة، وحلوة اللسان والبيان، وحسن التفهيم، والبعد عن الألفاظ المغلقة والتراكيب المعقدة، وسلامة المعنىٰ من التعقيد.

وبعد ما طالعتُ هذه المقالة شعرتُ بالمكانة العلمية للمفتي المحترم الذي يلتقي به أبي مواظبًا ومحترمًا، وهو أيضًا يلتقي به بسذاجة وتكريم، وسمعتُ أن سحبان الهند الشيخ أبا الوفا الفصيحي الغازي فوري أيضًا تعّرف الجلالة العلمية للمفتي المحترم بهذه المقالة، وبعد ذلك لقيه بتكريم وتشجيع، وأنه أيضا كان يعتبر المفتي المحترم عالما متبحرا بما سمع من رفقائه العلامة النظامي، والعلامة أرشد القادري وغيرهما من العلماء، ولكن لذة المشاهدة والتجربة، وحلاوة اليقين شيء آخر.

ع متى يكون المسموع كالمنظور.

ثم منحني زميلي في الدرس الفاضل مبين الهدى النوراني الغياوي كتابا مسمى بـ"اشك رواں" (الدمع الجاري) للمفتي المحترم، صنفه المفتي المحترم في ربيع الأول سنة ألف وثلاث مائة وخمس وستين من الهجرة قبل ست سنوات من ولادتي، ونشرتْه زاوية "بيت الأنوار" بمديرية "غيا"، كان عنوانه "كانگريس اور مسلم ليگ كى سياست" (سياسة الجمعيةالهندية ورابطة المسلمين) على ذاك العنوان كنتُ قرأتُ الكتاب المسمى بـ"الإرشاد" لحافظ الملة رحمه الله تعالىٰ، ونشر هذا الكتاب بعد عشرة شهور من "اشک رواں" ومن المحتمل أن والدي قد حصل على نسختين منه من حافظ الملة خلال تلك الفترة، أنه أيضا كان مهتما جدا بقصة "رابطة المسلمين" و"الجمعية الهندية"، كان ملخص الكتاب أنه لا يجدر "رابطة المسلمين" ولا "الجمعية الهندية" أن يُتضامن معهما كاملا، والنجاة في البعد منهما جميعا، وفي العمل بالشريعة، وذكر الشيخ المفتي هذا المبحث في "اشک رواں" بكامل من الشرح والبسط والدلائل والبراهين والقوة، كان المفتي المحترم ابن خمس وعشرين حين ألف هذا الكتاب، لكن قوة العلم والفكر تظهر في الكتاب، ويتجلى فيه عرفان المذاهب، وخبرة التاريخ، وتجربة الاستنباط والاستدلال، وبراعة الرد والنقد، وسيلان القلم،

ولون الخطابة، لا يوجد كل ذاك في الشبان من الفاضلين إلا قليلا، ففكّرتُ بما ذكر أن المفتي المحترم قد صار وسيع النظر في زمان طلب علمه، وحصل له براعة زائدة بعد عدة سنوات من تخرجه.

كان الموضوع السياسي لـ"اشک رواں" مثيرا لفكري، لكن ما كان لي فيه زيادة رغبة، لأن السهم قد خرج من القوس، وقد حقق الطرفان ما أراداه إلى حد كبير، والطريق الثالث الذي كان مطلوبا كان ينبغي تنفيذه وإعداده قبل سنوات كثيرة، لو كان كذا لحصلت الحرية بقيادة العلماء الحق بالطريقة الصحيحة، ولكانت السلطة في أيد أمينة، لكن هناك أيضا عملت حيلة من حيل المحتالين من الإفرنج واليهود بأنهم خططوا قبل مدة مديدة لإخلاء علماء الدين عن ساحة السياسة والحكومة، واستخدام خرّيجي أرض الإفرنج وعراة الدين والعلم بصورة قِطَع الشِطرنج للسياسة، وما مرّ خمسون سنة حتى بدأت تظهر ثمراته وإلى كفاح الحرية الثانية خرج خطيطهم إلى حيّز الظهور.

كانت البحوث الدينية والعلمية ممتعة لي في "اشک رواں" وكان بعضها جديدة لي، على سبيل المثال: كنتُ سمعتُ أن بعض الناس يعتبرون "رام" و"كرشن" وغيرهما من الأنبياء، لأني كنتُ معتادا لقراءة كل شي من رطب ويابس لذاك قد طالعتُه أيضا في مكان آخر، ولكن ما هي أسس هذا الاعتقاد وما هي إجابتها، لم أر كل ذاك مفصلا في مكان ما، وتم في هذا الكتاب تقديم طائفة تعتبر "رام" و"كرشن" وغيرهما أنبياء من بين الطوائف التي نشأت لدعم الرابطة الإسلامية من القاديانية والرافضية والوهابية والديوبندية والنيشرية، ثم ذكرت فيه أدلة تلك الطائفة على اعتقادها وإجابتها مفصلا، تسبب هذا الجزء من الكتاب لزيادة كبيرة في معرفتي، ونظرتُ فيه تعاقبا شافيا لفكرة باطلة، وشعرتُ به فرحا سارا، يكتب المفتي المحترم:

"منتهى الكلام الذي يجري على إثبات النبوة والرسالة أو القيادة الدينية لـ"كرشن" و"رام" و"غوتم بدھ" وغيرهم، أو يمكن أن يجري هو أن الله عز وجل قال: "وَإِنۡ مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ" (سورة فاطر، الآية: ٢٤) ويقول: "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ

(سورة يونس، الآية: ٤٧)، لما جاء لكل أمة وحزب رسول وهاد فلا جرم أن جاء لأصحاب الهند أيضا، فطرح السؤال: من هو؟، فلم يجب القرآن بأنه هو، ولم يخبره الحديث، ولم يدرك بوسيلة ثقة أنه من هو؟ لذا نقول يمكن أن يكون هو "كرشن" أو "غوتم بدھ".

ثم رد المفتي المحترم على الاستدلال المذكور، وملخصه ما يلي:

(١) ذكر في الآية أن لكل أمة رسول وهاد، ولم يذكر لكل أقليم وبلد وقرية، لذا لا يلزم إرساله لكل إقليم، ويمكن أن يرسل النبي إلى أمة يتعلق بها أهل الهند ولكنه لم يرسل إلى أرض الهند خاصة.

(٢) على سبيل الافتراض لو جاء نبي لأرض، فليس بلازم أن نعلم اسمه أيضا، ذُكر في القرآن إرسال رسل قد بُيّنوا في القرآن، ورسل لم يبين أسماءهم، قال تعالىٰ: "وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنٰهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ" (سورة نساء، الآية: ١٦٤)، وذكر في الحديث إرسال مائة ألف وأربعة وعشرين ألفا أو مائتي ألف وأربعة وعشرين ألفا من الأنبياء عليهم السلام، ولكن من هم؟ هل يمكن لأحد أن يخبر بأسمائهم.

(٣) لا بد من نص قاطع لا تكون فيه شبهة لإثبات أحد نبيا، ويكفي لإثبات عدم نبوته بأنه لا حجة قطعية لنبوته، والقول بأنه يمكن أن يكون فلان أو لعله يكون فلان، لايمكن إثبات النبوة بمثل هذا الكلام، كما ذكرت الحجج القاهرة على ذاك في كتب العقائد.

(٤) لا بد للنبي أن يكون مرتفعا خلقا وسيرة ومنزها عن كل إثم صغيرا كان أو كبيرا خاصة عن الآثام المنفِّرة كالكذب والسرقة والزنا، بل قد صرّح الإمام فخر الدين الرازي أنه لا بد براءة أبوي النبي عن الزنا، فضلا عن النبي نفسه.

فإذا نظرتَ إلى هؤلاء المذكورين وفق هذا المعيار، فإن أخلاقهم التي وردت في كتبهم لا تليق بإنسان صالح فضلا عن نبي، فإن قيل لا اعتبار لهذه الكتب فنقول لا اعتبار لوجود هؤلاء الرجال أيضا في العالم، وكونهم من الأنبياء أمر بعيد جدا، فالحال

أن الكتب التي تخبر بوجودهم، نفس تلك الكتب تخبر بسيرهم المنافية للنبوة كاملة، فما يعني بظن النبوة لهم؟

(٥) نحن نعتقد أنه لكل أمة هاد ورسول، ولكن هذا لا يعني أن يكون لكل أمة ولكل إقليم، ولكل بلد نبي في كل زمان، قد مضى فيما بين عيسى عليه السلام ونبينا صلى الله تعالى عليه وسلم فترة زهاء ست مأة سنة ما جاء فيها نبي، ونعتقد أن رسالة نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم عامة لكل إقليم ولكل أمة، فعلى سبيل الافتراض لو لم يأت نبي إلى أمة أو إقليم من قبل فبالبعثة العامة لنبينا صلى الله تعالى عليه وسلم يتم القول بأنه لكل أمة هاد ونذير أو رسول ونبي، فالآن ليس علينا أن نجعل مصداق الآية الرجال الذين لا يُعرف وجودهم بأي مكان في شريعتنا، ومن المصادر التي نعرف منها وجودهم بنفس تلك المصادر نعتقد أنهم بعيدون جدا من مكانة النبوة باعتقادهم وعملهم.

ثم ذكر المفتي المحترم بعد ذكر خلقهم وعملهم اعتقادَهم الكفري، وختم عليه البحث.

وذُكر تحت بيان النيشرية عبارات "سر سيد" التي سُخر فيها من الجنة، ثم ردّ عليها بنفس تلك اللهجة، وذاك من خواص قلم المفتي المحترم، وهذا يُشعر أن جوهر النقد والاستدلال والرد والرفض كان متأصلا في ذات المفتي المحترم منذ البداية ثم أصبح أكثر إثارة وحيوية من التجربة وامتداد الزمن، وهذا كان تعرفي الثاني على المكانة العلمية للمفتي المحترم وثمرات قلمه.

ثم لما كنتُ أدرس المجلدين الأخيرين من الهداية، وجامع الترمذي، والمدارك في التفسير وغيرها سنة ألف وتسع مأة وثمان وستين من الميلاد، في خلالها عقد بسيوان مؤتمر صار مقدمة لتشكيل "الإدارة الشرعية" بـ"بتنه" فذهب من الأشرفية زميل من زملائي في الدرس الفاضل فضل حق الغازي فوري للمشاركة فيه، ورجع من هنا بـ"أشرف السير"، كنتُ نظرت طليعة صفحاته خلال خطاب الشيخ

مجاهد الملة بـ"غوسي" ولكن ما سنحت لي فرصة للنظر فيما فيه، فلما جاء الزميل الموصوف بالكتاب، أخذتُ أطالعه قبله، وأعدتّه إليه بعد ما طالعته كاملا.

كان مكتوبا على صفحته العنوانية النصف الأول من المجلد الأول وكان الجزء الأعظم منه مشتملا على مقدمة وعلى التعريف بكتب السير، ثم ذُكرت السيرة واختتم المجلد الأول على عنوان إسلام آباء الرسول صلى الله تعالىٰ عليه وسلم وأمهاته، والأسف أن الكتاب غير متوفر لي في الوقت، ولكن يمكن لي أن أذكر إجمالا من مشمولاته التي تأثرت به أول الأمر.

ذكر المفتي المحترم نقائص سيرة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم للشبلي، ورد مفصلا على جرحه على الإمام الواقدي، وذاك الرد سوط عبرة للذين يمدحون دار المصنفين على كتابتها السيرة ويفرحون بها، تأثرتُ كثيرا بهذه المقدمة وبعدُ استفدتُ به أيضا عند ما كتبتُ "تنقيد معجزات كا علمى محاسبه" (الاحتساب العلمي لنقد المعجزات) وفي أمر الإمام الواقدي راجعتُ إلى التاريخ للخطيب البغدادي، وتهذيب التهذيب، وتقريب التهذيب وغيرها، و زدتُ فيه قليلا.

والمبحث الثاني لتاريخ ولادة النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم، واختار الشبلي مرعوبا بتحرير عالم جديد للهيأة محمود الفلكي أو محظوظا بـ"كل جديد لذيذ" قولا حديثا أن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم ولد في التاسع من ربيع الأول، فأثبت المفتي المحترم معقبا عليه أن ذلك الرأي لا يوافق رواية من الروايات المتعلقة بتاريخ الولادة ولا يوافق مع الاستخراج التقويمي لأصحاب الفن، ثم استخدام الاستخراج التقويمي يمكن أن يكون صائبا لو كان مضى الشهر والعام وفق سير القمر في العهد الجاهلي، لكن كان المشركون يزيدون الشهور كما أثبته القرآن، حتى أعلن النبي صلى الله تعالىٰ عليه وسلم في حجة الوداع قد استدار الزمان اليوم كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، لذا صرف أصحاب السير البصر عن الهيئة والتقويم، واعتمدوا على ما ثبت بالرواية المشهورة أي الثاني عشر من ربيع الأول، وعليه عمل أهل المدينة، وأهل الإسلام، وذاك بنفسه حجة.

وأنا في غاية الفرح من أن "أشرف السير" تحلى بالشجاعة في مقابلة أعين المعارضين والكلام معهم بدلا من التخوف من اعتراضات المستشرقين، وإعلان بطلان الأصول التقليدية والتاريخية لنا والاعتذار عنها، وهذا كان تعرفي الثالث على وفور علم المفتي المحترم وقوة قلمه وجرأة نقده ونظره وسعة فنه وفكره، وذاك بحمد الله تعالىٰ اكتمل خلال حياتي الطالبية، ثم لمّا كنتُ معلّما في المدرسة الفيضية النظامية بقرية "باراهات" لمديرية "باغل فور" قرأتُ فتوى للمفتي المحترم حول الاحتقان في الصوم، كتبها إجابة عن استفتاء زميلي في الدرس الفاضل عبد المبين النعماني، وأصدرها أخي الموصوف في عدد لمجلة "الميزان" المصدرة من "كجوجا" ثم طبعت في مجلة "باسبان" أيضا، والآن قد نشرت تلك الفتوى في الكتاب التعريفي المسمى بـ"شارح بخاري" لأخي في الإسلام الشيخ يسين أختر المصباحي، وستخرج إلى حيز الوجود في مجموعة مقالات المفتي المحترم أيضا، لو احتُقن بالدواء والغذاء في الجسم يفسد الصوم أم لا؟ هذه كانت قضية حديثة، أجاب عنها المفتي المحترم بالنفي، وجمع مراجعها من الكتب الفقهية، وهذا كان تعرفي الأول على مكانة الإفتاء للمفتي المحترم، تأثرتُ به كثيرا.

ما وجدتُ فرصة لسمع خطبة المفتي المحترم، ثم وجدتُ الفرصة له حين دُعي المفتي المحترم إلى حفلة إناطة العمائم للفضيلة في دار العلوم الأشرفية فألقى المفتي المحترم الكلمات في كلا اليومين في حفلة استمرت يومين، واختار في خطبة اليوم الأول عنوان "العلم بالغيب" سمعتُه لاحقا، لأني وصلتُ إلى الحفلة متأخرا، وفي اليوم الثاني خطب على عنوان "رحمة للعالمين"، سمعتُه من البداية إلى النهاية بإصغاء تام، حتى رسخت موادّها في خاطري، وقيدتُها في تذكار أيضا، وهذا كان أول تعرفي على حسن خطابة المفتي المحترم.

وشعرتُ بأمور في خطبته:

(١) الوقار العلمي.

(٢) والصلابة الاعتقادية والعلمية.

(٣) وسلامة الجمل والمواضيع وبداعتهما.

(٤) والخطابة حسب عقول عامة الناس مع كونها علميا ومعقولا.

(٥) وفي الترتيب جودة حيث تبقى الخطبة الكاملة في الذهن، وإن يرد السامعون أن يفهموا الآخرين تيسّر لهم ذلك.

(٦) وخطابة منشطة ومؤثرة لا يملّ بها السامعون.

(٧) والاجتناب الكامل عن الكلمات المنحطّة والخفيفة.

وللخطابات أنواع، منها:

(١) الخطاب العلمي والدقيق إلى الغاية لا يمكن فهمه إلا للعلماء.

(٢) والخطاب السطحي والشائق الذي يستحسنه عامة الناس لكن العلماء لا يستحسنونه ويستخفّونه.

(٣) والخطاب الذي تكون فيه كثرة كلمات غير محققة، ويكون خطيئا من جهة العلم والتاريخ، وتوجد فيه الزيادة اللاغية من أنفسهم على الروايات والرقعة على الرقعات من الألفاظ والجمل والمضامين والسياق الخاطي، ولكن يوجد في البيان سطوة وقوة يطرب بهما عامة الناس، ومثل هذه الخطب تملأ جيوب الدعاة الذين همّهم رضا الناس أكثر من رضا الله والرسول، وهمهم جمع حطام الدنيا أكثر من ثواب الآخرة.

(٤) والخطاب الذي يكون جامعا لمعلومات صحيحة من وجهة الرواية والدراية والعلم والتحقيق ورائعا منشطا من وجهة اللسان والبيان، يستفيد به عامة الناس وخواصهم جميعا.

والقسم الأول محدود نفعا، وهناك وفرة من النوع الثاني والثالث، وظلتْ تسود مثل هذه الخطب ومثل هؤلاء الخطباء في قلوب الناس وعقولهم في كل عصر، ولكن الخطاب بالمعنى الحقيقي هو الذي يصح على عيار النوع الرابع، وبفضله تعالىٰ يتصل خطاب المفتي المحترم إلى هذا النوع، ويكون نافعا، جامعا، فاتحا للبصائر.

وإنه يخطب على الاعتقاديات مع حجج قوية بحيث يتم تصحيح إيمان المنحرف عن الحق ويصير صاحب الاعتقاد الصحيح مؤمنا كاملا وداعيا لدينه، وعلى العمليات بحيث يكون المرء صالحا ومطيعا، ويخطب في مجالس العلماء خطابا علميا جامعا للمعارف والدقائق بحيث يفتح النوافذ الجديدة لفكرهم وبصيرتهم، وينير الأنحاء الحديثة لعلمهم ومعرفتهم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم تشرفتُ بمطالعة الكتاب "تحقيقات" للمفتي المحترم الذي طبع أول مرة باسم "التحقيقات لدفع البليات" وتأثرتُ كثيرا ببحثه لشهادة الرسل، ثم خرج إلى حيز الوجود "اسلام اور چاند كا سفر" (الإسلام والرحلة إلى القمر) هذا كان كتابا مضئي البصيرة ومكثر المعلومات كاسر الشبهات في موضوع جديد، وذلك الكتاب لم يؤثر عليّ فقط بل تأثرت به جميع المجالس العلمية.

والمذكور كله كانت آثارا بدائية لتعرفي على جلالة المفتي المحترم، ثم لمّا انتقل المفتي المحترم إلى "مبارك فور"، وأنا انتقلتُ من "جلال فور" إلى "محمد آباد غوهنه"، كنتُ أحضر إلى مبارك فور مرارا، وأشترك في الحوار العلمي، وفي تلك الأيام بدأ أمر "نزهة القاري"، وفي البداية كان الهدف إلى ترجمة فقط، وعلى ذاك الطريق كان عمل الترجمة يستمرّ مع بحث كامل، وفي خلاله كان يحضر الشيخ يسين أختر المصباحي والشيخ افتخار أحمد المصباحي للمساعدة، فقلتُ ناظرا إلى ذاك السعي الحثيث في الترجمة إن مجرد ترجمة الأحاديث قد يثير القلق في عامة الناس، كما أن عوام الحنفية بعد قراءة ترجمات منكري التقليد والديوبندية يشعرون بالقلق عندما يجدون أشياء كثيرة تخالف مذهبهم، إن الجهد الذي يبذل في الترجمة إن يزد فيه شيء سيؤدي إلى شرح وجيز، وسيكون ذاك مرضيا للناس ومزيلا لقلقهم، بحمده تعالى قبل المفتي المحترم رائي، وأكمل الشرح المحتوي على تسعة مجلدات باسم "نزهة القاري"، استحسنه العلماء، وسترون انطباعاتهم في هذا المجموع (المسمىٰ بـ"معارف شارح بخاري") ولا ريب أنه خدمة عظيمة، ينبغي لأهل العلم كافة أن يشكروا المفتي المحترم على ذاك.

وفقنا الله تعالىٰ أيضا لخدمات علمية ودينية، وأنشأ كثيرا من رجال لخطوات المفتي المحترم. آمين.

٤/ ٢/ ١٤٤٦هـ **محمد مقبول المصباحي**

١٠/ ٨/ ٢٠٢٤م (Chhatarpur M.P.)

رفيق **المجمع الإسلامي**، بمبارك فور، اعظم جره،(U.P.) الهند.

رقم الجوال: ٩١٨٩٥٣٩٢٩٧٩٥+